قصتي في التعليم

جمعة الرفاعي

لا شك أن مهنة التعليم مهنة سامية، وتشبيه المعلم بالرسول لم يأت مصادفة، فكلاهما صاحب رسالة تمس الروح والنفس والأخلاق، والرقي ذهنياً بالمجتمع كبنية تحتية لتشكيل مجتمع متطور.

كتابة قصتي في التعليم بدأت قبل أن أصبح معلماً، وربما أستطيع القول إنها بدأت خلال سنوات الدراسة الجامعية، فقد بدأت أفكر، وأنا المتخصص في اللغة العربية وآدابها، عن مجالات العمل بعد التخرج، وما هي الخطوط المستقبلية بعد الحصول على شهادة البكالوريوس، وهذا التفكير كان يقودني إلى اتجاهات عدة:

1. تكملة الدراسة العليا، وكان هذه الخط الأول الذي كنت قد رسمته لأسباب عدة أذكر منها:
   أ. الرغبة في العلم.
   ب. الحصول على شهادة عليا يمكن من خلالها فتح آفاق جديدة للعمل.
   ج. نظرة المجتمع لحملة الشهادات العليا.
2. العمل في أي مؤسسة حكومية أو غيرها سوى التعليم يعطي قابلية لإبراز المهارات التي تمكن من التقدم، فكلما صغرت مساحة الدائرة التي يتم فيها العمل، كانت مساحة التميز أكبر، ومعروف أن أكبر قطاع وظيفي هو قطاع المعلمين.
3. السَّفر، وهذا الخط كان للبحث عن مساحة من الحرية، ويندرج ضمن البحث عن «خط»، الخط في كل شيء: التعليم، التغيير، بحث عن فرص، علاقات جديدة، معرفة أنماط مختلفة من الأفراد وسبل الحياة والعمل، اعتقاداً أن السفر، وتحديداً إلى دولة أوروبية، يعطي مجالات أوسع للاختيار «وهل الحرية سوى أن تكون مجموعة خيارات متعددة».
4. العمل كمعلم، وهذا أضعف الاحتمالات، ويمكن من خلال ما سبق استنتاج أسباب ضعف التوجه إلى هذا الخيار.

بعد التخرج مباشرة، وكان ذلك في العام 2001، قمت بطرق هذه الأبواب، إلا أنها لم تفتح، وكل باب له حكايته الخاصة به، ولا أريد هنا الحديث عن هذه الأسباب، لكن من ضمن العوامل التي كانت أكثر تأثيراً على تحقيق أي منها كانت ظروف الإغلاق بسبب انتفاضة الأقصى، وقطع المواصلات والتضييق علينا كفلسطينيين.

كان لا بد من عمل إذن!

تقدمت بطلب إلى وزارة التربية والتعليم، وكان من حولي يقول «العب بالمقصقص تجيك الطيار»، لكن بعد تقديم الطلب هناك حوالي العام أو أقل قليلاً حتى يتم التعيين.

لكن يجب العمل خلال هذه الفترة، وسألت صديقاً مساعدتي، بعد يومين أخبرني أن هناك مجالاً في مدرسة خاصة، وعليك الذهاب لاستلام العمل. توجهت للمدرسة، وجلست مع مديرها لتوضيح المهام وكتابة العقد، وهنا شعرت أن العمل في مدرسة خاصة أفضل من الناحية المادية والجو العام وعدد طلاب الصف، ومن حسن الحظ

أيضاً أن المدرسة، وبعد أن علمت أني جديد في عملية التعليم، كلفت المرشدة التربوية للمدرسة بملازمتي أسبوعين داخل الصف، فقد كانت المرشدة تقوم بإعطاء الحصص أمامي، وتقوم بعملية تمهيد لي وللطلبة، بأنا سنتواصل في غيابها، ولا أخفي أن ذلك الإجراء قام بامتصاص المواقف التي قد تؤدي إلى الإرباك أثناء وقوفي أمام الطلبة، وساعدني ذلك أيضاً في التخفيف من حدة نفوري من التعليم. أذكر أيضاً أن المرشدة التربوية كانت في الأسبوع التالي تقوم بعملية تمهيد في بداية الحصة ثم تجلس على الطاولة وتتركني انفرد بعملية التعليم، وكانت خلال ذلك تقوم بكتابة ملاحظاتها حول طريقتي في إدارة الصف، ثم تناقشني في ملاحظاتها، وفي حصص أخرى كانت تعكس الموقف بحيث تجعلني أقوم بالتمهيد ثم تقوم هي بإدارة الصف، وفي كل الحالات كانت تكتب الملاحظات، وهذا ما ساعدني في إدارة الصف بمواقفه التعليمية والتربوية منذ البداية حتى النهاية.

لن أنسى طبعاً أول حصة وقفت فيها منفرداً أمام الطلبة في غياب المرشدة، حينما سألت الطلاب سؤالاً تمهيداً للحصة، وبدأ الطلاب يرفعون أصابعهم . . . أستاذ . . . . أستاذ . . . أستاذ . . . حينها تلفّت حولي لعل معلماً آخر يقف في الصف غيري، وعندما لم أجد تأكدت أني أصبحت معلماً، ومنذ ذلك الوقت بدأت أبرمج نفسي كمعلم يجب أن يمتلك الأدوات اللازمة في التعليم.

إن هذه المدرسة الخاصة كانت تمتاز بقلة عدد الطلاب في الصف، حيث كان العدد لا يتجاوز 15 طالباً وأحياناً 10، وهذا ما ساعدني كي أمارس التعليم بهدوء، وأكون واعياً لجميع ردود فعل الطلبة التعليمية والسلوكية.

استمر العمل في هذه المدرسة الخاصة ما يقارب العام، ثم صدر كتاب التعيين، وهنا كان يجب أن أختار بين الاستمرار في المدرسة الخاصة، أو العمل في سلك التعليم الحكومي، فاخترت الثاني لأسباب منها:

» أن العقد اقترب على النهاية، ولا توجد ضمانات لتجديده.
» الظروف العامة «الانتفاضة» غير مطمئنة للاستمرار في مدرسة خاصة.

إن هذه البداية في التعليم، وتحت إشراف تربوي، قد ساهمت في عملية اندماجي في البيئة التعليمية، لكن عملي معلماً لم يكن قد استقر على أسس علمية إلا بعد حوالي سنتين من التعليم، وكان الارتجال في التعليم سمة ظاهرة قد يصل حد التخبط، وذلك لعدم وجود أساس علمي يتم الاستناد إليه، فمثلاً، وأنا المتخرج حديثاً من الجامعة كانت مقدمات الدروس أحياناً تتجاوز ذهن الطالب بالتمهيد للدرس من خلال استحضار مواقف خارج بيئتهم، ما يشعرهم أني أتحدث عن مجهول، وهذا كان اعتقاداً خاطئاً مني لافتراضي المسبق أنهم قادرون على فهم كل ما يمكن أن يقال لهم دون ملاحظة أنهم قد لا يعرفون التجارب الخاصة بالآخرين.

لكن بعد حوالي عامين في العمل، كانت أغلب الأمور المتعلقة بالتعليم، قد اتضحت وبدأت أبحث عن أساليب مميزة ومبتكرة تساعد في العملية التعليمية، وهنا أستذكر بعض المواقف التي لا يمكن نسيانها.

أذكر مرة أن أحد المشرفين التربويين حضر لي حصة تدريسية، وكان الموضوع عن كيفية حل التدريبات، فقد كنت أوضح التدريب على السبورة، ونقوم جميعاً بحل الجملة التدريبية الأولى، وأترك للطلاب القيام بحل باقي الجمل التدريبية، لكن هذا الأسلوب لم يعجب المشرف التربوي بحجة أن هناك تعليمات يجب اتّباعها، وأمر أن يقوم الجميع بالحل بالتعاون مع المعلم؛ لأكتشف في العام التالي صياغة خطة لحل التدريبات توافق ما كنت أقوم به.

موقف آخر: عند دخولي الصف الرابع، وفي الحصة الأولى من حصص التربية المدنية، قمت بسؤال الطلاب حول معنى التربية المدنية، وكانت إجابات الطلاب تدور حول الفرق بين التربية في المدن والتربية في القرى، وكانت إجابة أحد الطلاب بالنص الحرفي «نريد أن نتعلم كيف يربي سكان المدينة أبناءهم». هذه الإجابة من الطالب أثارت استغرابي، وبخاصة أنه طالب في الصف الرابع، ومن المفترض أن تتكون لديه صورة، ولو بسيطة، حول الموضوع بعد ثلاث سنوات من دراسة التربية المدنية، فقلت للطالب إن إجابته خاطئة، وليس هذا المقصود، وإن كلمة «مدنية» تأتي من التمدن والحداثة والتقدم والطرق الجديدة المستخدمة في عملية التربية، ولا يرجع أصلها إلى مدينة أو قرية.

لم يكن في بال الطلبة أن يتم سؤالهم حول هذا الموضوع «عنوان المادة»، فكانت الدهشة تغلب على وجوههم، وقمت بالاتفاق مع الطلبة أن يسالوا آباءهم حول معنى «التربية المدنية»، وأن يكتبوا إجاباتهم على ورق، وكانت كلها تقريباً متشابهة من حيث صحتها، وقام أحد الآباء بالاتصال بي شخصياً ليتأكد من معلوماته حول المفهوم.

بعد عامين من التعليم، وبعد الاطلاع على تعليمات المديرية التي تتغير دوماً دون سبب، ودون مسح للعملية التعليمية التي يتم استيرادها من الخارج في إدارة الصف تعليمياً وتربوياً، والزيارات الإشرافية التي هدفها اقتناص أخطاء المعلمين فقط، أصبح لدي خبرة في التعليم، لكن تلك التعليمات على الرغم من قيامي بتطبيقها، فإنها لم تشبع رغبتي في الاكتفاء بالالتزام بها، فالتعليمات الواردة كانت صمّاء، ونظرية، وورقية، ونمطية، لهذا كان لزاماً علي أن استمد أساليبي من رغبات الطلاب أيضاً، ومراقبة ردود فعلهم حول الأفكار الواردة في كل درس، وبناء أساليب جديدة بناء على ذلك.

فأطراف العملية التعليمية:
المنهاج ← كوسيلة لتصدير الأفكار
الطلاب ← كمكتشفين
المعلم ← كوسيط واع
كلها تجتمع لتتم عمليّة تعليم متطورة، وهذا لا يوجد عندنا.

عضو الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين